Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهو يؤمل رغم كثرة الخطوب وتعدد أشكالها أن تنتهى هذه المساوئ إلى خير ، وأن يصير البعد إلى قرب ، وشكو النفوس إلى إبلال مما ألم بها من سقم .

ولكن الأمور لا تنتهى إلى خير ، بل يزداد السوء سوءاً ، وأدهى من السوء فقدان الأمل ، فإن أسوأ ما يصيب الإنسان ليس السوء نفسه ، وإنما اليأس من زوال هذا السوء ، لأن الأمل يعين على الاحتمال ، أما فقدان الأمل فإنه يجعل أيسر المتاعب ثقيلا ، والبحترى يصل أحيانا إلى هذا الشعور باليأس ، فلا يجد مهربا إلا الرحيل الذى يتحدث عنه كثيرا كلما ضاقت به الأحوال كقوله فى السينية :

وإذا مـاجُـفـيتُ كـنت حَـرِيًّا أن أُرَى غير مُصْبِح حيثُ أُمْسى

ولكن نفسيته دائما تكون فى الاستهلال أوضح ، فهو يقول فى أحد مطالعه عن يأسه من الصديق ، ورحيله النفسى عنه ، حتى يبلغ به السخط والنفور أن يزهد فى كل شئ تاركا إياه لهذا الخليل :

ياخـليلى ، بـل لستَ لى بخليلٍ جَـدَّ عـن كـلِّ ماعَهِدْتَ رحيلى
قد تركنا لك المُدامَ ونَيْل الصَّـ ـعْبِ ممن تُـحِـبُّـه والذلولِ[٧٠]

وأحيانا يحاول البحترى أن يستخرج من الشر خيرا ، وأن يجنى من الآلام ثمرة ، فيلجأ إلى الحكمة معزيا نفسه بأنه وإن كان الدهر قد خيب آماله ، وصب عليه أنواع المحن والصروف ، فإنه يستفيد من هذه الصروف أنها ميزت له من هم له ، ومن هم عليه ، فيقول فى مطلع مدح :

لئن ثنى الدهر من سهمى فلم يصل ورد من يدى الطولى فلم تنل
لقد حمدت صروفا منه عرفنى مذمومها عصبا ممن علىَّ ولى[٧١]

ولكن البحترى لا يمل السخط على الزمان ، متهما إياه دائما ليس بمجرد الجور وعدم الإنصاف ، بل أيضا بالخطل فى الموازنة بين الناس ، فمع أنه يفرق بين الكريم واللئيم ، إلا أن هواه وعطاءه أيضا دائما للئيم ، وسخطه وحرمانه دائما مصبوب على